مفصّل بعثه إلى وزارة الخارجية في لندن، تناول فيه المستوى المضطرب الذي وصلت إليه المدارك العقلية لرجل هيّأت له بريطانيا أن يحكم مع ولديه ثلاث ممالك عربية (الحجاز والعراق والأردن). بلغ العَتَهُ بـ«الشريف» حسين مبلغاً جعله يتباهى أمام ضيوفه الأوروبيين بحوض حمّام منزلي (bathtub) أهداه له «المستر» تشارلز كرين، وهو كان مندوب الرئيس الأميركي وودرو ويلسون. والطريف في الأمر، أنّ قصر «الشريف» المطلّ على البحر الأحمر في جدّة، لم يكن يحتوي قنوات صرف صحي، ولا نظام تزويد بالمياه، فما كان من الملك «الهاشمي» إلاّ أن وضع «البانيو» القرنفلي، فوق سطح قصره، واتخذه مسبحاً صغيراً يستحم فيه، في الهواء الطلق!

أغرى البدو الذهب والجنيهات البريطانية أكثر من دعاوى الاستقلال والعروبة (أرشيف)

أنّ خطة «الثورة العربية» تنهار.

في أكتوبر 1916 وصل إلى جدة، في الباخرة «لاما»، ضابط إنكليزي برتبة كابتن، كان اسمه توماس إدوارد لورنس. ولقد جاء الرجل مبعوثاً من قادته ليقيّم حقيقة الأحوال العسكرية على الجبهة العربية. وجال لورنس في الحجاز، واستعرض القوات «الشريفية»، فأعجب بقائدها فيصل ثالث أبناء «الشريف». ولاحظ لورنس في تقريره إلى قيادته أن البدو ليسوا بحاجة إلى جنود بريطانيين قد يُسبب وصولهم إلى البقاع الإسلامية المقدسة الحساسيات. لكنّ تحقيق النصر يكمن في زيادة تنشيط هِمّة البدو، وهذه مسألة يستطيع الذهب أن يتكفل بها. كما يمكن استثمار جرأة العرب بعدما يزوَّدون بالمدافع والذخيرة المناسبة، ويُلقنون بعض المهارات من بعض المدربين العسكريين. ثمّ خلص لورنس إلى أنّ نسف سكة الحديد الشامية الحجازية هي مفتاح الانتصار. وانتهى إلى أنه يستطيع أن يفعل تلك المهمات كلها بنفسه.

هكذا انبثقت في الحجاز حرب عصابات ناجحة. ثم صار الاستحواذ على الجيوب التركية الفاقدة كل أنواع الإمدادات، مسألة هيّنة. ففي صيف 1917، سقطت بلدة العقبة الواقعة على رأس البحر الأحمر، ثمّ تداعت مدن شامية أخرى كأحجار الدومينو: معان، فعمّان، فدرعا، وأخيراً دمشق التي دخلها فيصل بن حسين يوم 4 تشرين الأول 1918، ثم لحق به إليها، بعد بضعة أيام، الجنرال ادموند آلنبي، وهو القائد العام لقوات الحلفاء في الشرق، مستولياً على مقاليد القرار في سوريا. وفي نهاية هذا الشهر، أعلن العثمانيون انسحابهم من كل المنطقة العربية، ووقعوا هدنة مودروس، التي كانت في الواقع استسلاماً.

في تلك الأيام، بدأ «الشريف» يحلم أحلاماً وردية بإمبراطورية عربية يكون هو فيها خليفة وسلطاناً وخاقاناً للبرّيْن وللبحرين؛ لكن فجأة على حين غرّة، نبتت مجموعة من الخوازيق في أحلام «الشريف». ولقد تبيّن لاحقاً أنّ كل وعود مكماهون عن اعتراف بريطانيا بالدولة العربية المستقلة، كانت زائفة وكاذبة ومخادعة، وأنّ طبخة أخرى كان الغربيون يهيّئونها للمشرق العربي. ففي الشهر نفسه (شباط 1916) الذي كان فيه الإنكليز يتآمرون مع «الشريف» ضدّ العثمانيين، كانوا في مكان آخر يتآمرون مع الفرنسيين ضده. والأسوأ أنّ الإنكليز لم يكتفوا بعقد صفقة مع الفرنسيين لتقسيم المشرق، بل إنّ وزير خارجيتهم آرثر بلفور، عقد صفقة أخرى مع اليهود. وهكذا فإنه لمّا أفاق «الشريف» من النوم، أحسّ بوجع الخازوق، وعرف مقدار غباء من يطلب الدبس من النمس.

خريف «الشريف»

بما أنّ المصائب لا تأتي فرادى، كان هناك خازوق جديد يعدّه ابن سعود، هذه المرّة، للشريف حسين. وقد كانت بين إمارة نجد ومملكة الحجاز مشاكل حدودية قديمة، من أبرزها خلاف حول واحتي تربة. وبدا للملك حسين أن يحسم قضية تربة بالقوة العسكرية. فبعث إليها ابنه عبد الله في جيش يتكون من ألفي جندي نظامي، وخمسة آلاف بدوي، وعشرة مدافع ميدانية وعشرين مدفعاً رشاشاً. ومن جهته بعث عبد العزيز إلى تربة سلطان بن بجاد زعيم جيش «الإخوان»، يقود ألف وهابي مسلح. ولمّا كانت موازين القوى تميل بشدة لمصلحة «الهاشميين»، فقد تمركز عبد الله بجيشه في تربة، وهو لا يظن أنّ أحداً لا يزال يجرؤ على الاقتراب من الواحات التي أخذها. وحينما كان معسكر عبد الله يغط في النوم، في فجر يوم 25 أيار 1919، هاجمه مقاتلو «الإخوان» على حين غرّة، وأعملوا السيوف في رقاب من يعتبرونهم «كفاراً»، فسال الدم في ذلك الصباح، تحت أشجار النخيل، ودياناً. وأبيد جيش «الهاشميين» بصورة شبه تامة. وانتهت المعركة قبل شروق الشمس، وهرب الأمير عبد الله (ملك الأردن في ما بعد)، مع زمرة صغيرة من ضباطه، من المذبحة، وهم يرتدون ملابسهم الداخلية.

كانت هزيمة تربة ضربة قاصمة لجيش الملك حسين، فهناك فقد معظم رجال جيشه ومعداته. وبرغم أنّ بريطانيا أمرت ابن سعود أن يتوقف عن غزو الحجاز، بل أن ينسحب من تربة نفسها، وانصاع لأمرها صاغراً، فإنّ مصيبة «الشريف» في جيشه كانت لا تعوّض. بلغ الغيظ والحقد والقهر بالرجل مبلغاً جعل بعض الدبلوماسيين البريطانيين يكتبون في تقاريرهم لرؤسائهم أنّ حسين يكاد يجنّ.

سجّل نائب القنصل البريطاني في جدّة لورانس جرافيني شميث، حادثة جرت أمامه، على سطح الثكنة العسكرية بجدّة، في ليلة صيف عام 1920، تبيّن مقدار السّادية التي وصل إليها «الشريف». فقد كان الناس في ذلك الزمن يقضون السهرة على الأسطح طلباً لنسائم الهواء. وأحبّ «الشريف» أن يرفه عن ضيفه الإنكليزي ويضحكه، فأمر عبداً له أن يجيء بشيء. وبعد دقائق عاد العبد يجرّ قرداً ضخماً مربوطاً بسلسلة. وقام «الشريف» في الحال محرّضاً القرد على أحد ضيوفه الذين اشتهروا بالجبن. فزع الضحية فزعاً شديداً من القرد، وراح يركض حول السطح وهو يصرخ متعثراً بالناس والمقاعد، وكان على وشك أن يلقي بنفسه من حافة السطح الذي كان على ارتفاع عدة طوابق عن الأرض، خوفاً من الحيوان الهائج. فكتب جرافتي سميث يقول: «كنت أراقب الملك طوال هذا المشهد المؤلم، ورأيت كيف لمعت عيناه، ورأيت اللعاب يسيل من زوايا فمه». (3)

في قصة أخرى، روى القنصل رونالد ستورز كيف أنه كان يتكلم مع «الشريف» حسين ذات يوم بالهاتف، وكان الخط رديئاً. وفجأة سمع ستورز «الشريف» يخاطب سنترال التلفون بلغة لم تكن متوقعة من رجل في مثل مقامه الديني، آمراً العاملين بقطع جميع التلفونات في الحجاز باستثناء خطه لمدة نصف ساعة. وقد فعلوا ذلك في الحال. وبلغت عصبية «الشريف» مبلغاً جعلته يلقي بكل من يغضبونه في قبو يقع تحت قصره في مكة. حيث كان ينزل ومعه هراوة، متى طاب له ذلك، لينفس عن غضبه بضرب البائسين الذين كان يحتفظ بهم في الظلام هناك.

ويوم أعلن «الشريف»، في 5 آذار 1924، أنه عيّن نفسه خليفة للمسلمين، لم يأخذه أحد على مأخذ الجدّ، واستهزأ به كثيرون؛ على كل حال، فإنّ نهاية «الشريف» كانت قد أوشكت في ذلك العام، فقد انفض عنه كل من حوله، بما في ذلك ابناه اللذان اصطنعت بريطانيا لهما تاجين في بغداد وعمّان. كره الحجازيون حسين حدّ القرف. ونفضت بريطانيا يدها من الشيخ العجوز لكثرة عناده ومطالباته. وحينما هجم جيش ابن سعود على مدينة الطائف في الحجاز، يوم 4 أيلول 1924، وارتكب فيها مذبحة رهيبة طاولت المئات من أبنائها العزل من السلاح، ولم يدافع الملك حسين عن شعبه حتى برصاصة واحدة؛ فقد الملك شرعيته تماماً. وتحت ضغط أعيان الحجاز وكُبرائها المطالبين باستقالة حسين من منصبه، رضخ الرجل للأمر الواقع أخيراً.

في الساعة التاسعة من مساء 3 تشرين الأول 1924، وقّع «الشريف» على وثيقة التنازل عن العرش لابنه علي. وبما أنه لم يعد يرغب أن يبقى في الحجاز، بعد كل الذي جرى له، فقد اتصل بابنيه ملكي العراق والأردن، ليسمحا له باللجوء في بلديهما. وكان عجيباً أن الاثنين رفضا استقبال والدهما، فلم يعد للشريف حينئذ من خيار إلاّ المنفى. ولقد وجد له الإنكليز ملجأ في جزيرة قبرص، فقبل بذلك. وقضى «الشريف» أيامه الأخيرة في جدّة، بتعبئة ممتلكاته الخاصة التي تبيّنت طبيعتها عندما ركب أخيراً السفينة يوم 16 تشرين الأول 1924. فقد شوهد العبيد وهم يترنحون من ثقل الصفائح المحكمة الإغلاق التي حملوها إلى الباخرة «تو ميْر سيز». وكانت تحتوي على ثمانمئة ألف جنيه ذهبي، هي حصيلة أرباح ستة عشر عاماً من تجارة الحج، وما احتفظ به «الشريف» لنفسه من المساعدات البريطانية أثناء «الثورة العربية».

وافق الإنكليز على طلب «الشريف» راتباً شهرياً ضخماً بمقاييس ذلك الزمن

أمر البريطانيون ابن سعود أن يتوقف عن غزو الحجاز لإنقاذ حسين بن علي

بينما تآخر الإنكليز مع «الشريف» ضدّ العثمانيين، تآمروا عليه مع الفرنسيين

«الشريف» يطلب الدبس من النمس

بالفعل، بادر «الشريف» حسين ببعث موفد إلى السير آرثر هنري مكماهون، وهو المندوب السامي البريطاني في مصر، يحمل مذكّرة بالمطالب العربية، ضُمّنت في رسالة مؤرّخة في 14 تموز 1915. وزاد «الشريف» إلى مطالب القوميين العرب مطلباً آخر خاصاً به، فلقد ترجّى بريطانيا العظمى أن توافق على أن يكون خليفة المسلمين عربياً في مقبل الأيام. وردّ مكماهون على رسالة «الشريف» بأخرى قبل فيها أن يكون خليفة المسلمين عربياً، وتحفظ على الاعتراف بالحدود التي هذه فرصة تاريخية سانحة للارتقاء درجات أعلى في سلم المجد. فبعث ابنه فيصل إلى دمشق، ليجس فيها مواقف القوميين العرب في الشام، فوجدهم على قلب رجل واحد متعطشين للاستقلال ببلادهم عن الترك، وساخطين على واليهم جمال باشا «السفاح». وأسفرت تلك الاجتماعات عن اتفاق سمّي «ميثاق دمشق». وفيه اعتمد المجتمعون العرب خريطة لدولتهم الموعودة. كما يتصوّرونها ـ التي تمتد حدودها من مرسين وأضنة شمالاً إلى عَدن جنوباً، ومن البصرة شرقاً إلى سيناء غرباً. وكانت الصفقة التي رأوا أن يعرضوها على بريطانيا تتمثل في التالي: عليها أن تعترف بحدود دولتهم، وباستقلالها التام، وهم يقبلون أن يعقدوا تحالفاً حربياً معها، وأن يمنحوها الأفضلية في الشؤون الاقتصادية، في دولتهم القادمة.

قررها مؤتمر دمشق لدولة العرب. ثمّ تواترت المراسلات بعد ذلك بين حسين ومكماهون حتى بلغت عشر رسائل. أسفرت المفاوضات بين الجانبين في نهاية المطاف، يوم 10 آذار 1916، عن اعتراف إنكليزي بحق العرب في دولة افتراضية، مقابل أن يدخلوا هم إلى الجبهة جنوداً في حروب بريطانيا الفعلية. ولم ينس «الشريف»، وهو يفاوض مكماهون نفسه طبعاً؛ أن يطلب من بريطانيا أن تدفع له مرتباً شهرياً يستعين به على قضاء شؤونه وحوائجه. قبل الإنكليز أن يدفعوا لحسين راتباً شهرياً ضخماً بمقاييس ذلك الزمن، قوامه خمسة وعشرون ألف جنيه إسترليني. واشترط حسين أيضاً أن يكون مُلك الدولة العربية المقبلة له ولذريته خالصاً. ووعده الإنكليز خيراً... ثمّ اشترط أن يمدوه بالحنطة مع السلاح والذخيرة والمستشارين، وقبلوا ذلك. أخيراً أعلن «الشريف» حسين بن علي من سطح قصره في مكة «الثورة العربية الكبرى» في صبيحة 2 حزيران 1916، وذلك عبر طلقة افتتاحية من بندقيته. وأجابتها رصاصاتُ بنادق كثيرة في الهواء أطلقتها جماعات من البدو أغراهم الذهب والجنيهات البريطانية والحنطة أكثر مما أغرتهم دعاوى الاستقلال والحرية والعروبة. على أنّ أولئك المرتزقة لم يكونوا نداً للجيش التركي النظامي الذي سرعان ما استجمع شتاته، واستخدم سكة الحديد الحجازية بفعالية لنقل المدد والتعزيزات من دمشق إلى المدينة المنورة. فبدا كما

هوامش:

(1) روبرت ليسي، «المملكة»، ترجمة دهام العطاونة، ص 101.

(2) المصدر السابق، ص 43.

(2) المصدر السابق، ص 100.